وقفات مع
السبع المثاني

تأليف

سلمان بن فهد العودة

المشرف العام على شبكة الإسلام اليوم

مقدمة

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ الدين ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ الذين أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المغضوب عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ١-٧].

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين..

وبعد، فهذه السورة العظيمة التي يقرؤها المسلم في اليوم الواحد بعدد ركعات الصلوات، لقوله ﷺ فيما رواه البخاري من حديث عبادة: "**لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب**.."[(١)]، وقد ذكر الشرّاح أن معنى الحديث: أن يقرأ بها في كل ركعة من صلاته، فدل هذا على عظيم شأن السورة، وجليل قدرها، وأنه

(١) أخرجه البخاري (٧١٤)، ومسلم (٥٩٥).

ينبغي على كل مسلم – فضلاً عن طالب العلم– أن يتأمل في معانيها فلحكمة بالغة شرع الله تكرارها في الصلوات من بين سور القرآن وآياته.

- **أسماء سورة الفاتحة:**

ولهذه السورة أسماء كثيرة، وكثرة أسمائها تدل على عظيم قدرها؛ فهي: سورة الفاتحة؛ فقد سماها النبي ﷺ فاتحة الكتاب[(١)]؛ وذلك لأنها أول ما يقرأ من القرآن الكريم، فهي أول سورة مكتوبة في المصحف، وإن لم تكن أول سورة نزلت، ولهذا سماها النبي ﷺ فاتحة الكتاب.

وهي: – أيضاً– أم القرآن، وهكذا سماها النبي ﷺ[(٢)]؛ وإنما سميت أم القرآن – والله أعلم– لأن معاني القرآن الكريم ترجع إلى هذه السورة؛ فهي شاملة للمعاني الكلية، والمباني الأساسية التي يتكلم عنها القرآن.

(١) انظر الحديث السابق وتخريجه ص٣.

(٢) كما أخرجه البخاري (٤٣٣٥) أن النبي ﷺ قال: " **أم القرآن هي السبع المثاني، والقرآن العظيم**".

وهي: السبع المثاني؛ وذلك لأنها سبع آيات تقرأ مرة بعد مرة، وهي- أيضاً- شاملة للمعاني الكلية في القرآن الكريم، ولهذا سميت بالمثاني.

وهي: القرآن العظيم؛ فقد سماها بذلك النبي ﷺ فقال: "**هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته**"[1].

وهي: سورة الحمد؛ لأنها بدأت بحمد الله عز وجل في قوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢].

بل سماها الله عز وجل: الصلاة -كما في الحديث القدسي - قال الله عز وجل: "**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل؛ فإذا قال العبد:** ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ **، قال الله تعالى: "حمدني عبدي"، وإذا قال:** ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ **، قال الله تعالى: "أثنى عليَّ عبدي"، وإذا قال:** ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ الدين ﴾، **قال: "مجدني عبدي"، وقال مرة: "فوض إليَّ عبدي"،**

(١) أخرجه البخاري (٤١١٤).

فإذا قال: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، **قال: "هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل"، فإذا قال:** ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ الذين أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المغضوب عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾، **قال: "هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل"**[1]، فسماها الصلاة؛ وذلك إما لأنها ذكر ودعاء؛ فإن السورة فيها دعاء وتبتل إلى الله عز وجل بأعظم مطلوب، وهو الهداية، وذلك في قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦]؛ فسميت السورة ببعض أجزائها، وبعض معانيها: وهو الدعاء. والدعاء- في اللغة- يسمى صلاة، كما قال الله عز وجل: ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ [التوبة: ١٠٣]، يعني: ادع لهم.

وقد قال الأعشى:

(٢) أخرجه مسلم (٥٩٨).

تقولُ بنتي وقـــد قَرَّبْتُ مُرتحِــلاً
يا ربِّ جنِّبْ أبي الأوصابَ والوجعا
عليك مثل الذي صلَّيْتِ فاغتمضي
نومـــاً فإن لـــجنب المرء مضطجعا

يعني لك من الدعاء مثل الذي دعوت به لي؛ فالصلاة هي الدعاء.

وقد تكون سميت بالصلاة لمعنى آخر: وهو أنها لا تصح الصلاة إلا بها -كما سبق-؛ فهي ركن في الصلاة.

.. إلى غير ذلك من الأسماء التي تدل على عظمة هذه السورة، وجليل قدرها، ووجوب العناية بها. ويكفي في شرفها أنه لا يكاد يوجد مسلم في الدنيا إلا ويحفظها، حتى إن الإنسان أول ما يدخل في الإسلام، وينطق بالشهادتين، يحفظ سورة الفاتحة قبل غيرها؛ حتى تصح بها صلاته. ولو أن الإنسان اقتصر عليها في الصلاة لصحت صلاته؛ فما زاد عنها فهو نفل مستحب، وليس بواجب.

ولذلك؛ فإننا سنتناول آيات الفاتحة في المباحث الخمسة التالية، مع الوقوف على معانيها، سائلين المولى عز وجل أن يوفقنا لحسن البيان.

* * *

المبحث الأول

قوله تعالى: ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١ ﴾

اختلف أهل العلم، هل هي آية من الفاتحة؟ أم آية من القرآن؟ أم آية من كل سورة؟ ولا أدخل في هذا الخلاف الفقهي فسيرد-إن شاء الله- في درس بلوغ المرام ذكر شيء منه.

ولكن المقصود أن كل سورة في القرآن تبدأ بـــ ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾؛ وفي هذه السورة بالذات قال: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾؛ فأعاد هذين الوصفين العظيمين لله تعالى.

وفي هذه السورة ذكر لله عز وجل خمسةً من أسمائه الحسنى وهي الله، الرب، الرحمن.

- أولاً : ٱللَّهُ :

وهو الاسم الأعظم لله عز وجل[1] الذي تلحق به الأسماء الأخرى، ولا يشاركه في هذا الاسم غيره؛ فلم يَتَسَمَّ به أحد قط[2].

فمن معاني اسم ٱللَّهُ: أن القلوب تألهه- يعني تحن إليه، وتشتاق إلى لقائه، وإلى رؤيته، وتأنس بذكره- فهو ٱللَّهُ الذي تتأله إليه القلوب بالمحبة، والشوق، والحنين، حتى إنك تجد المسلم يدعو الله تعالى بقوله -كما قال الرسول ﷺ- : **"وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم، والشوق إلى لقائك** .."[3].

- وأيضاً- من معاني لفظ الجلالة: ٱللَّهُ أنه الذي تحار فيه العقول، فلا تحيط به علماً، ولا تدرك له من الكنه والحقيقة إلا ما بين سبحانه في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ، ولا تعلم كيفية

---

(١) على قول طائفة من أهل العلم.

(٢) قال تعالى: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴾ [مريم: ٦٥].

(١) أخرجه أحمد (١٧٦٠٥)، والنسائي (١٢٨٨ ، ١٢٨٩).

ذاته سبحانه، ولا تحيط به؛ فتحار فيه، وإذا كانت العقول تحار في بعض مخلوقاته في السماوات والأرض، والبر والبحر، فكيف بذاته جل وعلا؟! فالعقل يرتد كليلاً حسيراً عن إدراك ذات الله جل وعلا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٠].

وفي حديث الشفاعة يقول الرسول ﷺ: ".. **فأستأذن على ربي فيؤذن لي، ويلهمني محامد أحمده بها لا تحضرني الآن، فأحمده بتلك المحامد، وأخر له ساجداً**.."(١)، فأخبر أن الله يعلمه من المحامد ما لا يعلمها الآن، ويفتح عليه من العلم به آنذاك ما لم يكن لديه من قبل.

ومن معاني الألوهية في اسم الله: أنه الإله المعبود المتفرد باستحقاق العبادة؛ ولهذا جاء هذا الاسم في الشهادة؛ فإن المؤمن يقول: "أشهد أن لا إله إلا الله"، لم يقل مثلا: "أشهد أن لا إله إلا الرحمن"، أو "إلا الرحيم"، مع أن "الرحمن" و"الرحيم" من أسمائه جل وعلا، لكن أطلق هذا الاسم العلم الذي هو أصل لكل

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٥٦).

الأسماء الأخرى–فقال: "أشهد أن لا إله إلا الله"–؛ اعترافاً بأنه لا معبود بحق – في الكون– إلا الله عز وجل، أما المعبودات بالباطل فهي كثيرة، يقول تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ [الحج: ٦٢].

- **ثانياً الرب :**

فهو رب العالمين، رب كل شيء وخالقه والقادر عليه، لا يخرج شيء عن ربوبيته وكل من في السموات والأرض عبد له، في قبضته، وتحت قهره .

- **ثالثاً ورابعاً الرحمن الرحيم :**

واسم الرحمن كاسم الله ، لا يسمى به غير الله، ولم يَتَسَمَّ به أحد؛ فـ"الله" و"الرحمن" من الأسماء الخاصة به – جل وعلا– لا يشاركه فيها غيره، ولهذا قال سبحانه: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فله ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الإسراء: ١١٠]، أما الأسماء الأخرى فقد يسمى أو يوصف بها غير الله، كالرحيم، والسميع، والبصير، كما قال سبحانه عن نبيه ﷺ: ﴿

بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وكما قال: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان: ٢]،

أما اسم ﷲ واسم "الرحمن" فلا يسمى بهما غيره سبحانه.

و"الرحمن" و"الرحيم" مأخوذان من الرحمة، وقيل[1]: "الرحمن": رحمة عامة بجميع الخلق، و"الرحيم": رحمة خاصة بالمؤمنين، كما قال عز وجل: ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وقيل إن الفرق بينهما: أن اسم "الرحمن" بالنظر إلى وجود الصفة، وأما "الرحيم" فبالنظر إلى متعلَّقها في الخلق - يعني حصول أثرها في الخلق برحمته تعالى لهم، أشار إليه الإمام ابن القيم[2] - رحمه الله تعالى-؛ فالله هو رحمن الدنيا والآخرة، ورحيمهما.

(1) قاله أبو علي الفارسي والوزمي وغيرهما انظر ذلك في تفسير ابن جرير والقرطبي وابن كثير.

(2) مدارج السالكين ١/٧ وما بعدها .

وها هنا ينبغي أن نتأمل سراً من أسرار تكرار هذين الاسمين -الرحمن الرحيم-، فإن الإنسان إذا أراد أن يقرأ قال: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، وإذا أراد أن يدخل أو يخرج قال: "بسم الله"، وإذا أراد أن يأكل قال: "بسم الله"، وإذا أراد أن يخطب أو يتكلم قال: "بسم الله"، النبي ﷺ قال: **"كل أمر ذي بال لا يبدأ ببسم الله** – وفي رواية: **بالحمد لله – فهو أبتر،** [أو] **أقطع،** [أو] **أجذم.."**[(١)]، والمعنى: ناقص البركة.

لكن من المعلوم أن العبارة تقال هكذا : "بسم الله الرحمن الرحيم"، فلم يقل أحد من الناس قط: "بسم الله المنتقم الجبار"، أو: "بسم الله العزيز الحكيم"، مع أن هذا حق؛ وإنما يقال: "بسم الله الرحمن الرحيم"، وفي هذا إشارة إلى قوله عز وجل في الحديث القدسي عند البخاري وغيره: **"إن رحمتي سبقت غضبي"**[(٢)]، وفي

(١) أخرجه أحمد (٨٣٥٥)، وأبو داود (٤٨٤٠) وابن ماجة (١٨٩٤) والحديث روى مرسلاً صحيحاً عن الزهري وموصولاً بأسانيد ضعيفة، وتفصيل الكلام فيه في مقدمة طبقات الشافعية الكبرى للسبكي، وأنظر مقدمة إرواء العليل.

(٢) أخرجه البخاري (٦٨٧٢ ، ٦٨٩٩ ، ٦٩٩٩)، ومسلم (٤٩٣٩ ، ٤٩٤١).

الحديث الآخر- أيضاً- في الصحيح قال ﷺ : "**إن لله مائة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن، والإنس، والبهائم، والهوام؛ فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخَّر الله تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة**"(١)، ففي ذلك إشارة إلى عظيم رحمته جل وعلا، وأنها تسبق غضبه.

ولذلك ينبغي ألا يقنط الإنسان من رحمة الله مهما أسرف على نفسه بالذنوب والمعاصي؛ قال تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ الذين أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقال سبحانه: ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [الحجر: ٥٦]، وقال عز وجل: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧]؛ ولهذا كان اليأس من رحمة الله،

(٣) أخرجه مسلم (٤٩٤٤).

والأمن من مكر الله من صفات الكافرين. وهكذا ينبغي للإنسان أن يتشبث أبداً بطلب رحمته - جل وعلا-، وأن يعلّم الناس الثقة برحمته سبحانه.

وكثيراً ما كان النبي ﷺ يعلم أصحابه الرجاء فيما عند الله عز وجل، وأن تكون ثقة الإنسان بالله وبرحمته أعظم من ثقته بعمله؛ فإن عمله قد لا يقبل؛ فقد يداخله الرياء، والعجب، أو لا يكون على وفق ما شرع رسول الله ﷺ فيُرَدُّ على صاحبه، لكن يكون اعتماد العبد على رحمة الله جل وعلا، قال ﷺ: (لن يُدخل أحداً الجنة عملُه ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته)[1]

وهكذا ينبغي أن يُدعى الناس والعصاة بخاصة إلى الله عز وجل بتذكيرهم برحمته؛ مع تذكيرهم بعقوبته، فالله عز وجل يقول: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠].

[1] أخرجه البخاري (٥٦٣٧) ومسلم (٢٨٦١) من حديث أبي هريره.

فالناس- دائمًا وأبدًا- محتاجون إلى تذكيرهم برحمة الله جل وعلا، خاصة وأننا نجد كثيراً من الناس- وربما من طلبة العلم أو من الدعاة- من يفيضون كثيراً في الحديث عن الوعيد، والتشديد، والتخويف، والترهيب،إلى درجة تحدث أثراً عكسيًّاً وهو تقنيط العصاة من روح الله ورحمته فيتملكهم اليأس، ويفقدون الأمل فيتشبثون بما هم عليه من أنواع المعاصي، ويستغرقون فيها. أما فتح أبواب الرجاء في القلوب فاسلوب قرآني عظيم يواجهك في مطلع أول سورة في القرآن الكريم، فعلمنا أن نستفتح ونبدأ باسمه: "الرحمن الرحيم"؛ حتى إن الإنسان الذي يريد أن يتكلم عن النار سيقول في أول حديثه: "بسم الله الرحمن الرحيم"، والذي يريد أن يتكلم عن نواقض الإسلام سيبدأ بـــ"بسم الله الرحمن الرحيم"، والذي يريد أن يتكلم عن الحدود الشرعية سيبدأ بـــ"بسم الله الرحمن الرحيم".

فينبغي أن يعطى هذا الحديث قَدْرَهُ عند الناس، ويُذكَّروا دائماً بأن يتعلقوا بـــ"اللَّهُ" "الرحمن" "الرحيم"؛ وهذه الأسماء المذكورة في هذه السورة هي أصول الأسماء الحسنى، وهي اسم

الله والرب والرحمن، فاسم الله متضمن لصفات الألوهية واسم الرب متضمن لصفات الربوبية، واسم الرحمن متضمن لصفات الجود والبر والإحسان. فالربوبيه من الله لعبادة، والتأليه منهم إليه عز وجل، والرحمة سبب واصل بين الرب وبين عبادة، فبرحمته بعباده أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وبها رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم، فبينهم وبينه سبب العبودية، وبينه وبينهم سبب الرحمة[1].

- **خامساً : المالك :**

وذلك في قوله: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ الدين ﴾، أي يوم يدان الناس بعملهم، ويجازون به خيراً أو شراً، فبعدما اعترف لله قائلاً: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ﴾، زاد الاعتراف قوة وثباتاً بأن أثنى على الله سبحانه بصفاته - تلك- وأسمائه: ﴿ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ

[1] مدارج السالكين : المقدمة .

ﭐلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ الدين ۝٤ ﴾، وفي قراءة سبعية(١): ﴿ مَلِكِ يَوۡمِ الدين ﴾، بالقصر بلا مد؛ وكلاهما جائز أن يُقرأ به في الصلاة.

المبحث الثاني

قوله تعالى: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ الدين ۝٤ ﴾

ثم استفتح السورة بالحمد في قوله: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ حتى سميت باسم "الحمد". والحمد هو: الثناء على المحمود بإفضاله وإنعامه، أما المدح فهو: الثناء عليه بصفات الجلال، والجمال، والكمال.

إذاً؛ فالحمد ثناء على الله تعالى بما أنعم عليك، وما أعطاك، فإذا قيل: إن فلاناً حمد فلاناً، فمعناه أنه شكره على إحسان قدمه إليه،

(١) أي من القراءات السبع المتواترة، وهي قراءة نافع وغيره.

لكن إذا قيل: مدحه، فلا يلزم أن يكون مدحه بشيء قدمه، بل قد يكون مدحه مثلاً ببلاغته وفصاحته، وقد يكون مدحه بجماله، وقد يكون مدحه بقوته، إلى غير ذلك.

فهذا هو الفرق بين الحمد والمدح: أن الحمد ثناء على المحمود بإحسانه، وإفضاله، وإنعامه إلى الحامد؛ أما المدح فهو أعم من الحمد لشموله الثناء بصفات الجمال، والجلال، والكمال مطلقاً؛ فالحمد فيه معنى الشكر، ومعنى الاعتراف بالجميل. ولحظ ابن القيم فرقاً آخر فقال : الإخبار عن محاسن الغير إما أن يكون إخباراً مجرداً من حب وإرادة أو مقروناً بحبه وإرادته، فإن كان مجرداً عن الحب والإرادة فهو المدح، وأما الحمد فهو الإخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه[1]

والسورة تبدأ بالاعتراف، والاعتراف فيه معنى عظيم؛ لأنه إقرار من العبد بتقصيره، وفقره، وحاجته، واعتراف لله جل وعلا بالكمال، والفضل، والإحسان، وهو من أعظم ألوان العبادة؛

1 بدائع الفوائد ٢/٩٣.

ولهذا قد يعبد الإنسان ربه عبادة المُدلّ، المعجب بعمله؛ فلا يُقْبل منه عمل؛ بل يُرَد عليه، ويُجعل هباءا منثورا؛ لأنه داخله إعجاب، والإعجاب لا يتفق مع الاعتراف والذل؛ فلا يدخل العبد على ربه من باب أوسع وأفضل من باب الذل له، والانكسار بين يديه؛ بل هذا هو معنى العبادة المذكور في قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾، تقول العرب: هذا طريق معبّد، يعني: مذلَّل تطؤه الأقدام؛ فمن أعظم معاني العبادة : الذل له سبحانه.

ولهذا كان النبي ﷺ كثير الاعتراف لله تعالى على نفسه بالنقص والظلم، فكان يقول ﷺ -كما علَّم أبا بكر- : "**اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني؛ إنك أنت الغفور الرحيم**"(١)، وكان يقول: "**اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني، وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي؛ فاغفر لي؛**

(١) أخرجه البخاري (٧٩٠ ، ٥٨٥١ ، ٦٨٣٩)، ومسلم (٤٨٧٦).

فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت"(١)، حتى قول: "اللهم اغفر لي"، فيه معنى الاعتراف على النفس بالذنب والنقص، والاعتراف لله تعالى بأنه هو الغفور الرحيم.

فبدء السورة بـــ ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ فيه معنى الاعتراف بالنعمة، ولا شك أن عكس الاعتراف هو الإنكار والجحود، والذنب الذي كفر به إبليس هو الجحود؛ فإبليس يعرف ربه، ويدعو الله تعالى باسمه؛ بل ويحلف بالله تعالى-كما قال تعالى عنه: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٢]- ويسأل الله تعالى، ويؤمن بيوم القيامة: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ [ص: ٧٩]؛ ولكن ذنبه هو الجحود، والاستكبار عن الطاعة والعبادة، وهكذا قال عز وجل عن فرعون وقومه: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗا ﴾ [النمل: ١٤].

(١) أخرجه البخاري (٥٨٣١ ، ٥٨٤٨).

فإذا قال العبد: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ تبرأ من هذا كله، وكان أول ما تدل عليه هذه الكلمة: أن العبد- وهو واقف- يقول: " أعترف بأنني عبد محتاج، فقير، ذليل، مقصِّر، وأنك الله ربي المنعم المتفضل"، فهذا فيه معنى الحمد؛ إذ إن العبد يحمد ربه على فضله عليه في دينه، ودنياه.

المبحث الثالث

قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾

هذه الآية فيها معنى من أعظم المعاني؛ وهو الاعتراف لله تعالى بالعبودية، وأن الإنسان لا يعبد إلا الله، وهذا أصل التوحيد، وما بُعث الرسل إلا بهذا، كما في قوله تعالى: ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [هود: ٢٦].

والشرك في الألوهية من أخطر ألوان الشرك الذي بليت به الأمم كلها، حتى تسرب إلى الأمة الإسلامية؛ فصار كثير منهم

يعبدون غير الله؛ والشرك في الألوهية أخطر ألوان الشرك على الإطلاق؛ لأن قضية الربوبية- وهي الاعتراف بالله عز وجل- أمر تقر به الفطر والنفوس، ولا يحتاج إلى كبير تقرير، وموضوع الأسماء والصفات أيضاً حصل فيه انحراف، ولكنه لا يقاس بالانحراف الذي حصل في موضوع الشرك في توحيد الألوهية؛ ولهذا ينبغي أن نعتني كثيراً بدعوة الناس إلى توحيد الألوهية؛ لأنه أصل الدين، وأساس التوحيد.

فقوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ فيه تقديم للضمير، إشارة إلى التخصيص، يعني: لا نعبد إلا إياك، ففيها حصر، وقصر.

وقوله: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، فيه إثبات الاستعانة بالله، ونفي الاستعانة عمن سواه - يعني لا نطلب إلا عونك؛ فلا نستعين بغيرك، ولا نستغني عن فضلك-. فمن الناس من يستعين بغير الله، ومنهم من قد يستعين بالله وبغيره، ومنهم من قد لا يستعين بالله تعالى، وهؤلاء جميعاً لم يحققوا ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

ولهذا قال الله تعالى -كما سبق في الحديث القدسي- : **"هذا بيني وبين عبدي"**(١)؛ فقول: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ هذا حق الله تعالى على العبد، كما في حديث معاذ أن النبي ﷺ قال: **"حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا"**(٢)، فالعبد يقر به، ويعترف في قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾، وأما قوله: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ فهو استعانة العبد بالله عز وجل؛ إذ لا قوام له -حتى على التوحيد، فضلاً عن غيره من أمور الدنيا والآخرة- إلا بعون الله؛ فقد قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٤٣].

---

(١) سبق تخريجه، انظر ص٥.

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٤٤ ، ٥٥١٠ ، ٥٧٩٦)، ومسلم (٤٣ ، ٤٥).

المبحث الرابع

قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾

وسؤال الهداية يتضمن معاني متنوعة فمنها:

❑ **المعنى الأول**: ثبتنا على الصراط المستقيم؛ حتى لا ننحرف عنه، أو نزيغ؛ لأنه من الممكن أن يكون الإنسان اليوم مهتدياً، وغداً من الضالين؛ ولهذا أعقبها بقوله: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾، أي ثبتنا على صراط الذين أنعمت عليهم، هذا معنى.

المعنى الثاني: قوّ هدايتنا، فالهداية درجات، والمهتدون طبقات؛ منهم من يبلغ درجة الصديقية، ومنهم من يكون دون ذلك، وبحسب هدايتهم تكون منازلهم في الجنة، وبحسب هدايتهم يكون سيرهم على الصراط؛ فإن لله تعالى صراطين: صراط في الدنيا، وصراط في الآخرة، وسيرك على الصراط الأخروي هو بقدر سيرك على الصراط الدنيوي.

فالصراط الدنيوي هو طريق الله، كما في قوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَاطِ ٱللَّهِ الذين لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣]، وقوله عز وجل: ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [الفتح: ٢]، فهذا الصراط الدنيوي بطاعة الله فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه، وبقدر استقامة العبد عليه يكون سيره على الصراط الأخروي، الذي هو الجسر المنصوب على متن جهنم، وهو دحض، مزلة، يمشي الناس فيه بقدر أعمالهم، فمنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كأجاود الخيل، ومنهم من يمر كالراكب، ومنهم من يمشي، ومنهم من يمشي تارة ويهوي أخرى، إلى غير ذلك ..

فقوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ ﴾ يعني: قوّ هدايتنا، وزد إيماننا وعلمنا؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤]؛ فالعلم من الإيمان، وكلما ازداد العبد التزاماً

بالصراط المستقيم، ازداد علمه، قال سبحانه: ﴿ فَأَمَّا الذين ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٤]؛ فزيادة الإيمان هي زيادة ثبات على الصراط المستقيم؛ قال تعالى: ﴿ والذين ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى ﴾ [محمد:١٧]؛ فهذه الآية نص في الموضوع، وكقوله تعالى عن أصحاب الكهف: ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف: ١٣].

فمن الممكن أن يكون الإنسان مهتدياً، ثم يزداد من الهداية بصيرة، وعلماً، ومعرفة، وتمسكاً، ودعوة، وصبراً، إلى غير ذلك، فهذا من معاني قوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾.

المعنى الثالث : أن الصراط المستقيم أن يفعل العبد في كل وقت ما أمر به في ذلك الوقت من علم وعمل، ولا يفعل ما نهى عنه، وهذا يحتاج في كل وقت إلى أن يعلم ويعمل ما أمر به في ذلك الوقت وما نهى عنه، وإلى أن يحصل له إرادة جازمة لفعل المأمور، وكراهة جازمة لترك المحظور فهذا العلم المفصل والإرادة

المفصلة لا يتصور أن تحصل للعبد في وقت واحد بل كل وقت يحتاج إلى أن يجعل الله في قلبه من العلوم والإدارات ما يهتدى به إلى الصراط المستقيم[١].

قال ابن القيم رحمه الله : لّما كان العبد مفتقراً في كل حال إلى هذه الهداية في جميع ما يأتي ويذر: من أمور قد أتاها على غير الهداية فهو يحتاج إلى التوبة منها . وأمور هدي إلى أصلها دون تفصيلها، أو هدي إليها من وجه دون وجه فهو يحتاج إلى إتمام الهداية فيها، وأمور هو يحتاج أن يحصل له من الهداية في المستقبل مثل ما حصل له في الماضي، وأمور هو خال عن اعتقاد فيها فهو يحتاج إلى الهداية فيها، وأمور لم يفعلها فهو يحتاج إلى فعلها على وجه الهداية، وأمور قد هدي إلى الاعتقاد الحق والعمل الصواب فيها فهو محتاج إلى الثبات عليها، إلى غير ذلك من أنواع الهدايات فلما كان العبد محتاجاً إلى هذا كله فرض الله عليه أن يسأله هذه الهداية في أفضل أحواله مرات متعددة في اليوم والليلة[٢]

[1] مجموع الفتاوى ١٤/٣٧.

[2] كتاب الصلاة لابن القيم .

❑ حقيقة الهداية :

ولتحقيق الهداية فلابد :

أولاً: معرفة الحكم، وماذا يريد الله ورسوله منه في هذه المسألة.

ثانياً: العمل بهذا الحكم، عن طريق وجود إيمان قوي في قلب العبد يحدوه إلى العمل.

فحين يقول العبد: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾، فهو ينادي ربه ويسأله قائلاً يا ربنا دلنا على ما تحب وترضى في كل ما يواجهنا من أمور الحياة، ثم قوّنا وأعنَّا على العمل بهذا الذي عرفناه دللتنا عليه وعلمتنا إياه.

وسر الضلال يرجع إلى فقد أحد هذين الأمرين – العلم والعمل – والوقوع في ضدهما وهما .

أولاً : الجهل: فإن الإنسان قد توجد عنده الرغبة في عمل الخير ولكن يجهل الطريقة الشرعية لتحصيلة فيسلك طرقاً مبتدعة ويجهد نفسه فيها بغير طائل، وكم من المسلمين وقعوا في أنواع

من الضلالات والبدع وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، وذلك بسبب قلة العلم، فحين يقول العبد : ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ ، فهو يسأل ربه أن يعلمه ويدله فلا يبقى في ضلال الجهل متخبطاً علىغير بصيرة.

السبب الثاني: الهوى: فقد يرتفع الجهل بالعلم؛ فيكون الإنسان عالماً، ولكن ليس لديه العزيمة التي تجعله ينبعث للعمل بهذا العلم، فيترك الواجب أو يرتكب المحرم عامداً مع علمه بالحكم لضعف الإيمان، وغلبة الشهوة وتعجل المتعة الدنيوية.

فقول العبد في كل ركعة: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ إشارة إلى أنه يحتاج الهداية على الدوام،

* * *

المبحث الخامس

قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ الذين أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ المغضوب عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾

هذا تأكيد للمعنى السابق وتفصيل له، ولذلك أعاده سبحانه هاهنا؛ لأن القرآن مثاني؛ قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ ﴾ [الزمر: ٢٣]، يعني يعاد معناه مرة بعد أخرى.

فقوله: ﴿صِرَٰطَ الذين أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾، يعني الذين حازوا على الهداية التامة ممن أنعم الله عليهم من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

ثم قال: ﴿غَيۡرِ المغضوب عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾

المغضوب عليهم:

هم الذين عرفوا الحق وتركوه، كاليهود ونحوهم قال الله "قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللهِ مَن لَّعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ"، وقال ﷺ : (اليهود مغضوب عليهم والنصاري ضلال"[1] ولكن الغضب ليس محصوراً في اليهود؛ فقد قال تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خالداً فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ [النساء: ٩٣]، قال ﷺ: **"من اقتطع مال امرئ مسلم بيمين كاذبة لقي الله عز وجل وهو عليه غضبان"**[٢]، وقال أيضاً: **"من حلف على يمين صبر؛ ليقتطع مال امرئ مسلم، لقي الله وهو عليه غضبان"**[٣]، و في قصة الثلاثة من بني إسرائيل - الأبرص والأقرع والأعمى- قال: **"إن الله قد**

(1) أخرجه الترمذي (٢٩٥٣) من حديث عدى بن حاتم وقال : حسن غريب.

(٢) أخرجه أحمد البخاري (٧٤٤٥).

(٣) أخرجه البخاري (٤١٨٥ ، ٦١٨٣)، ومسلم (١٩٧).

رضي عنك، وسخط على صاحبيك"[١]، فالمغضوب عليهم من اليهود أو غيرهم: لم يهتدوا إلى الصراط المستقيم، وسبب عدم هدايتهم هو: الهوى، فاليهود معهم علم؛ ولكن لم يعملوا به.

ولهذا قال بعض السلف: "من ضل من علماء هذه الأمة ففيه شبه من اليهود"؛ لأنهم يعلمون، ولكنهم يرتكبون الخطأ عمداً وإصراراً؛ فيتعوذ الإنسان من حالهم وطريقهم، فمن الهداية أن يكون عند الإنسان العزيمة والقوة على فعل الحق، وترك الباطل.

وقدَّم الله تعالى المغضوب عليهم على الضالين لأن أمرهم أخطر، وذنبهم أكبر، فإن الإنسان إذا كان ضلاله بسبب الجهل فإنه يرتفع بالعلم وأما إذا كان هذا الضلال بسبب الهوى فإنه لا يكاد يَنْزِع عن ضلاله.

فمن كان عالماً أصلاً ولكنه لا يعمل فإنه يكون مستبطنا كل حجة يمكن أن تقال له ولذا يقابلها بالإعراض، مثال ذلك إنسان يدخن، ولأنه يدخن صار معنياً بموضوع التدخين؛ يقرأ فيه،

(٤) أخرجه البخاري (٣٢٠٥)، ومسلم (٥٢٦٥).

ويتابع التقارير والأخبار؛ فتجد أن لديه ثقافة ممتازة عن التدخين، وخطر التدخين، ومحتويات هذه السيجارة، حتى إنه مستعد أن يلقي محاضرة قوية جداً عن التدخين، ولكنه مع ذلك كله يدخن، فما هي الحيلة في هذا الإنسان؟ إن قضيته ليست فقدان العلم ولكنها فقدان الإرادة والعزيمة على الفعل، وهذا أخطر ما يكون.

ولهذا جاء الوعيد الشديد في شأن من لا يعمل بعلمه، حتى قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري عن أسامة بن زيد: **"يجاء بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق أقتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون: أي فلان ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه"**[1].

فهذا الإنسان عالم يعرف المعروف والمنكر، بل ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ولكنه لا يعمل؛ ولهذا كان بهذه المثابة من

(١) أخرجه البخاري (٣٠٢٧)، ومسلم (٥٣٠٥).

العذاب. وكان من أخطر ألوان انحراف اليهود أنهم يعرفون الحق، ثم يعرضون عنه، ويلبسونه بالباطل؛ ولهذا قدم المغضوب عليهم على الضالين فقال: ﴿غَيْرِ المغضوب عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

❑ الضالون:

وهم الذين تركوا الحق عن جهل وضلال كالنصارى ونحوهم وسبب ضلال النصارى الجهل، ولا يمنع أن يكون طرأ عليهم بعد ذلك العناد والإصرار، بعدما زال الجهل عن بعضهم.

❑ الطرق الثلاثة:

إننا الآن أمام ثلاث طرق:

الأول: الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، وطريقتهم مشتملة على العلم بالحق والعمل به يقول تعالى: ﴿ هُوَ الذي أَرْسَلَ رسوله بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الصف: ٩]، يعني العلم النافع، والعمل الصالح، وهذا هو الصراط المستقيم.

الطريق الثاني: هو صراط المغضوب عليهم من اليهود وغيرهم، وهؤلاء يعرفون الحق، ولكنهم لا يعملون به.

الطريق الثالث: هو صراط الضالين، هؤلاء يعملون، ولكن بغير علم، ولهذا قال بعض السلف: "من ضل من عُبَّاد هذه الأمة ففيه شبه من النصارى"، فمن ضل من عُبَّاد هذه الأمة -كبعض الطرق الصوفية مثلاً التي تعبد الله على جهل وضلالة- ففيه شبه من النصارى؛ لأنهم يعبدون الله، ولكن على جهل وضلال.

فهذا هو المعنى العظيم الوارد في قوله عز وجل: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ الذين أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾، مع أن المسلم مهتد إلى الإسلام، ولكن - مع ذلك- يطلب مزيداً من الهداية، يعني مزيداً من العلم، ومزيداً من العمل، والتوفيق في كل حالة ومسألة تنـــزل به، ثم أعاده في قوله: ﴿ غَيْرِ المغضوب عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾، فهؤلاء اختل عندهم ركن العمل، وهؤلاء اختل عندهم ركن العلم.

الخاتمة

وفي الختام، أسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن هدوا إلى الصراط المستقيم، ورزقوا العلم النافع، والعمل الصالح، وجنبوا طريق المغضوب عليهم والضالين، آمين.

* * *

فهرس